الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء وموقفه الحضاري من الغرب

أ.م.د حيدر نزار السيد سلمان
كلية الآثار/ جامعة الكوفة

المقدمة:

أسهم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في المشروع الإصلاحي التجديدي خلال النصف الأول من القرن العشرين، ومثّل امتداداً لرواد النهضة في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي بما قدمه من طروحات وأفكار تدخل ضمن نطاق الإصلاح الديني أو المدرسة الإصلاحية الدينية، إذ استجاب لمتطلبات العصر وتغيّراته الخطيرة التي كان من أهم عواملها التغلغل الاستعماري الأوربي عسكرياً واقتصادياً وثقافياً، والذي شكّل صدمة عنيفة دفعت المفكرين والأدباء ورجال الدين للتصدي لهذا الخطر الداهم، وتفكيك قوته الثقافية الهادفة لنشر ثقافة غربية وقيم حضارية جديدة قد لا تتوافق مع القيم الإسلامية والعربية. كان كاشف الغطاء من أولئك الذين أثارتهم الأفكار والثقافة الغربية المدعومة بقوة علمية وصناعية وتقنية، ليمارس دوراً تنويرياً وفكرياً للوقوف أمام التأثيرات الغربية التي رأى فيها محاولة خطيرة للانقضاض على الإسلام والمسلمين وقيّمهم وثقافتهم والاستيلاء على بلدانهم.

يتناول هذا البحث مواقف كاشف الغطاء بهذا الاتجاه ورؤيته المنبثقة من بيئته وتعليمه الديني عن الغرب وحضارته وثقافته، وكان لموقفه هذا إطاره الحضاري وبُعده الإسلامي بالدفاع الصلب عن العقيدة الدينية والقيم الإسلامية والعربية، المؤمن بقدرتها على التوافق مع العصر، مقدماً شروطاً للنهضة واستعادة الأمل من خلال الالتزام بالنقاء الديني العقائدي، والأخذ من العلوم والمعارف ونبذ حياة الضياع والتأثر بالغرب.

اعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع كان في مقدمتها كتب الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وخصوصاً كتابه (الدين والإسلام) بطبعتيه القديمة والجديدة، وهو الكتاب الذي يمثّل قمة النتاج الفكري لكاشف الغطاء، وفيه خلاصة لتصوراته حول النهضة والخروج من حالة التردي والتخلف التي

يعيشها المسلمون، كما تم الاعتماد على مصادر أخرى من كتبه مثل (جنة المأوى) و(الفردوس الأعلى) و(الخطب الأربع) وغيرها.

يهدف البحث للتعريف بالجهود التي قدمها علماء الدين من المدرسة النجفية في مجال الدفاع عن الحضارة الإسلامية وقيمها، ومساهماتهم في إيجاد حلول فكرية وثقافية. ولعل الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء كان من أبرز هؤلاء بمساهماته ونتاجاته ورحلاته إلى مختلف البلدان العربية والإسلامية، وكان حماسة الديني طاغياً وواضحاً في كتاباته وخطبه، بل كان أحياناً حاداً غاضباً وهو يرى حال بلاده التي أخذت تتأثر بأنماط الحياة الغربية، وتبتعد عن أصولها وعاداتها وتقاليدها، ليشكل هذا كله قلقاً وغضباً عند كاشف الغطاء لما بلغه الحال من تراجع.

ربما تأتي محاولات الكتابة عن الرموز الدينية والثقافية المجددة والإصلاحية ضرورة تفرضها التطورات العصرية والحاجة لمعرفة مواقفهم وأفكارهم، ونحن نعيش عصر العولمة والانسلاخ الثقافي وحالة الاغتراب الروحي للكثير من الشباب في هذا الوقت، وهنا تبدو الحاجة ملحّة للكشف عن نتاجات ومواقف هذه الرموز، وتأصيل المواقف الحالية لتستند على قاعدة متينة وفّرها مفكرون وعلماء ومثقفون وعلى رأسهم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء.

ولادة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ونشأته:

ولد الشيخ محمد حسين بن الشيخ عليّ بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ موسى بن الشيخ جعفر (صاحب كتاب كاشف الغطاء عن الشريعة الغرّاء)[١] في النجف عام ١٢٩٤هـ الموافق للعام الميلادي ١٨٧٦[٢]، في أُسرة عُرفت بالتقوى والصلاح[٣]. يقول عنها الشيخ محبوبة إنها: "ذات توجه علمي دين" [٤]، وقدّمت هذه الأسرة كثيراً من العلماء والفقهاء والمجتهدين الدينيين[٥].

نشأ المولود في حجر والده الشيخ عليّ الذي تولى تعليمه[٦]، وكان والده معروفاً بعلمه، إذ كان طلبة العلم يتزاحمون لحضور درسه والنهل من آدابه، وفي تلك البيئة النجفية نشأ الفتى منذ نعومة أظفاره على

المطالعة والدراسة[٧].

كان الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء يقضي أكثر ساعات يومه بالقراءة والاطلاع على العلوم، ويقول عن بداياته: "إني منذ عرفت ليلي ونهاري، وميّزتُ بين خشونة رأسي وأظفاري لم أحب ولم أتعلق إلا بدراسة الكتب ومزاولة العلم والتعلّم واللصوق بأهل الفضائل والمثول بين يديّ الأكابر، اقتباساً من فوائدهم وتطفلاً على موائدهم" [٨].

وفي هذه البيئة العلمية نشأ الشيخ وترعرع وكان صاحب طموحات كبيرة وغايات معرفية عالية وأهداف إنسانية، حتى غدا عالماً فقيهاً وكاتباً قلّ من يدانيه في ذلك العصر بقلمه وخطبه ومجالسه، وكان لحديثه تأثيراً قوياً اجتماعياً وسياسياً[٩] حتى أنّ المؤرخ النجفي جعفر محبوبة وصفه بقوله: "هو عميد الطائفة وزعيمها وعلم من أعلامها وناصرها، منبع العلوم والآداب" [١٠].

كان كاشف الغطاء رجلاً طويل القامة أسود اللحية [١١]، أسمر اللون، رقيق الشفتين مستطيل الوجه واسع الجبهة، وكانت عيناه واسعتين براقتين ذو نظرات حادة[١٢].

كان كاشف الغطاء واثقاً بنفسه معتداً بشخصيته وهذه الثقة جعلته موضع إعجاب الكثير من الكتاب والفقهاء في البلاد العربية والإسلامية[١٣] الذين وجدوا فيه فقيهاً حراً يبني أفكاره وأحكامه على المنطق والدليل العقلي[١٤] إذ كان يجمع بين الآداب والسياسة والاجتماع بالإضافة إلى العلوم الدينية الفقهية، وهذه الصفات قلما تتوافر بين العلماء[١٥]. وكان رجلاً يتصف بمواصفات الرجل الجاد الذي يعمل بنشاط وحماس في كل موقف يرى فيه مصلحة الإسلام والمسلمين[١٦].

كوّن الشيخ كاشف الغطاء علاقات واسعة واتصالات مع شخصيات إسلامية، كما كانت له علاقات مع شخصيات غير إسلامية وبالخصوص من المسيحيين ومن مختلف أنحاء العالم وخاصة الأدباء والمفكرين، ومن ذلك اتصالاته وعلاقاته مع رجال الأدب والفكر المسيحيين اللبنانيين سواء المقيمين في لبنان أو بالمهجر[١٧]، وشكلت هذه العلاقات والاتصالات سعة أفق عند الشيخ وشفافية في الفكر

والطروحات، وهو ما أثار البعض ضده من الذين كانوا يرون في بروزه وصعوده خطراً، فلم يجدوا وسيلة أكثر تأثيراً من تأليب الناس ضده وبث الأخبار المضخمة عنه[١٨].

درس كاشف الغطاء العلوم الدينية والفقهية مبتدئاً بدراسة مقدمات العلوم من نحو وصرف ومنطق وأصول دين فأظهر مقدرة في التعلم والاستيعاب والإبداع[١٩]. ثم انتقل إلى مرحلة السطوح، فدرس الفقه وأصوله واستطاع أن يكمل مرحلة السطوح وهو شاب[٢٠].

كان أبرز الذين تتلمذ الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء عندهم مجموعة من كبار علماء وأساتذة الحوزة الدينية بالنجف ومنهم: الشيخ محمد باقر الأصفهاني والشيخ أحمد الشيرازي والشيخ عليّ النجفي. ودرس علم الحديث عند المحدث النوري والشيخ عليّ الخاقاني[٢١]. أما مرحلة البحث الخارج فدرس الأصول عند الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني[٢٢]، وعند السيد محمد كاظم اليزدي درس الفقه. وكانت له مع اليزدي علاقة متينة، إذ أثّر كثيراً في شخصية كاشف الغطاء حتى أنّ اليزدي كلّفه ليكون في حملات الجهاد ضد البريطانيين في الحرب العالمية الأولى ١٩١٥[٢٣].

أصبح الشيخ مرجعاً دينياً بعد أن نال درجة الاجتهاد وكان يلقي دروسه في عدة أماكن مثل المسجد الهندي وفي الصحن الحيدري الشريف ثم في مدرسته فيما بعد، وقد تخرج من بين يديه عدد كبير من طلاب العلوم الدينية[٢٤].

أنتج كاشف الغطاء مجموعة مهمة من الكتب المتنوعة في اتجاهاتها البحثية، فهو لم يكتفِ باتجاه معرفي واحد، وتشهد كتبه على غزارة الإنتاج وتنوعه، وتتوزع هذه النتاجات على الفقه والعقيدة والتأريخ والأدب والفكر[٢٥]. لكن الملاحظة الهامة هي أن كاشف الغطاء، وبروح توّاقة للمعرفة، استهوته دراسة الأديان والعقائد والتعمق في عقائدها وكان له مجهودات واضحة في هذا المجال[٢٦].

ويمكن القول إن شخصيته قد تشكلت بمزايا خاصة، وفرتها اطلاعاته الواسعة ونهمه الشديد للتعلم والاطلاع، كما هو حال سفراته الخارجية التي كانت بأساسها حرصاً منه للتعرف على العالم الإسلامي

والتواصل مع رموزه، لتتكون شخصية فعالة ساهمت في الكثير من القضايا الفكرية والأحداث السياسية.

الموقف الحضاري من الغرب:

تميز الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء بانفتاحه على قضايا متنوعة وفي حقول متعددة، إذ كانت له مواقف ورؤى في السياسة والاقتصاد والاجتماع ودراسة الأديان والعقائد والتاريخ، بالإضافة إلى اهتمام مبكر بالتطورات الفكرية والحضارية الأوربية الغربية وطبيعتها الثقافية والسلوكية. وجاء موقفه من الغرب[٢٧] ضمن هذا السياق الحركي ذو السمات الدفاعية عن العقيدة الدينية الإسلامية أحياناً، وعن القيم الاجتماعية المشكلة بانصهار القيم والأخلاقيات العربية مع ما جاء به الإسلام من أخلاقيات وقيّم.

لابد من التأكيد على أن مواقف الشيخ كاشف الغطاء الفكرية ببعدها الحضاري تنبعث من كونه عالم دين أولاً، ولنشأته في أسرة عريقة في توجهاتها الدينية وفي مدينة هي مقر للمرجعية الدينية العليا ثانياً، فهو ينطلق من عقيدته الدينية وحرصه الشديد على هذه العقيدة، واهتمامه بما آلت إليه أوضاع العالم الإسلامي، وما ينتظر المسلمين من مصير. فهو يتحرك بتلقائية دون حاجة لمن يحركه، ولعل موقفه يأتي من رؤيته عن التبدلات الثقافية والحياتية والسلوكية، إذ يرى إن ثقة المسلمين بدينهم قد ضعفت من خلال انخداعهم بمظاهر الثقافة والحياة الغربيّتين البراقة التي خسرتهم هويتهم[٢٨].

أثارت الشيخ كاشف الغطاء مجموعة من الممارسات والسلوكيات التي أخذت تسود بين الشباب العرب والمسلمين المتأثرة بالغرب، وتخليهم عن هويتهم القومية والدينية. إذ إن التشبه بالكفار –كما يصفهم– والأمم الأخرى، وخاصة بالنسبة لمسألة ألتخلي عن الزي القومي، هي في حقيقتها ظاهرة اغتراب للذات تمثل تدهوراً يعيق رجوع عَظمة الأمم الشرقية والمسلمين، وكانت صدمة الشيخ كاشف الغطاء واضحة من هذا الاتجاه، لا سيما إن ما شاهده في إيران خلال رحلاته أوقد عنده شعلة الدفاع عن الهوية الإسلامية[٢٩].

شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين اندفاعاً استعمارياً غربياً باتجاه الشرق والعالم

الإسلامي[٣٠] وهي المدة التاريخية التي بدأ فيها الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء إدراكه ووعيه بالأحداث الحاصلة، إذ شكلت الأطماع الاستعمارية صدمة عنيفة له ولغيره من علماء الدين والمفكرين، وقد حفزه هذا لتأليف كتابه (الدين والإسلام) الذي جاء في فصول منه كردود فكرية على الحضارة الغربية وثقافتها والأفكار التي نتجت عنها، كما ضمّ آراء الشيخ ومعالجاته لإيقاف التردي والتقهقر الحضاري في بلاد الشرق[٣١] والمسلمين واستعادة دورهم بالتصدي للغزو الاستعماري والثقافي الغربي كما سيأتي لاحقاً.

كانت ولادة الشيخ كاشف الغطاء في الربع الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٧٦) متزامنة مع انحطاط الدولة العثمانية وتأخر البلاد العربية الإسلامية وضعفها وسيطرة الأجانب على كثير من البلاد العربية كالجزائر وتونس ومراكش ومصر وعدن وعمان وغيرها، وقد كان لذلك تأثير حاد على نفسية الشيخ وخلق عنده شعوراً بالحزن والأسى لسوء الحال، وهو ما بعث عنده حافزاً قوياً للدعوة لإصلاح الأمة وتحقيق الرقي وتحسين الحال، فظهرت الدعوات في كل من نثره وشعره[٣٢].

وقد كانت ردود الفعل الأولى عند المفكرين العرب على مظاهر الضعف والتخلف والانحلال التي أصابت مجتمعهم ردود دينية، وكانت أقوى الحركات الفكرية عندهم وأكثرها أصالة هي الحركات الإصلاحية الدينية، فقد أثار الجمود الفكري والتقليد الأعمى لدى الأجيال المتعاقبة من علماء المسلمين، وما علق بالإسلام من ضلالات وبدع، وما تمخض عن ذلك من طرق صوفية اعتمدت المبالغة والتطرف وابتعدت من جوهر العقيدة الإسلامية[٣٣]، كما وأثار الروحانيين المسلمين العصريين وأعلنوا الثورة عن كل ما لحق بالإسلام من بدع وحشو باطل وبدأوا يبحثون عما يلائمون به بين الإسلام وبين متطلبات العصر، ولكنهم يرفضون إمكانية وشرعية إعادة النظر في الشريعة الإسلامية[٣٤]، فظهرت مجموعة من المفكرين الذين أرادوا المزاوجة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، اعتبروا ذلك سبيلاً لتحقيق النهضة والرقي، فكان رفاعة رافع الطهطاوي[٣٥] رائداً في هذا المجال. فقد حثّ المسلمين على الأخذ بالأسباب التي قادت بالغرب إلى التفوق والمزاوجة بين هذه الإنجازات العلمية والفكرية وبين العقل العربي المسلح بالتراث

الإسلامي، لكن دعوته لم تنقص من إيمانه بحضارة الشرق وثقافته وتراثه ولم يجعل اطلاعه على الثقافة الأوربية لديه شعوراً بالنقص، أو يولد لديه شعورا بالتعالي ويدفعه إلى العزلة والانفصال عن المجتمع الذي نشأ فيه[٣٦].

لكن كان هناك تيار آخر دعا إلى الأخذ بأسباب الحضارة الغربية والعوامل التي قادت الغرب إلى التطور والتفوق، رافضاً حضارة الشرق التي عدها معوقاً للنهضة والرقي، وقد كان أبرز رواد هذا الاتجاه (شبلي شميل) و(فرح أنطوان)[٣٧]، وآخرون[٣٨]، ويرجع بعضهم سبب موقف هؤلاء إلى ارتباطاتهم الروحية والعملية مع الغرب المسيحي[٣٩].

ثم كان التيار الديني الإصلاحي الذي استهدف إحياء الحضارة الإسلامية بعد مرحلة انحطاط ذبلت فيها مظاهرة الحياة في العالم الإسلامي، وشيوع روح الجمود في العقيدة واضمحلال دور العقل، فكان ذلك حاجباً للصورة الأصلية للإسلام وطمساً لمعالمه، فتحولت الأمة الإسلامية إلى ما يشبه الجثة الهامدة لا حياة فيها، محركة مطامع الاستعمار الأوربي لمدّ نفوذه وتغلغله بالتدريج إلى البلاد الإسلامية[٤٠].

وكان ذلك محفزاً للمصلحين للتحذير من الغزو الاستعماري، محركاً فيهم المخاوف من الحضارة الغربية، فشعروا بضرورة الاعتصام والدفاع عن الحضارة الإسلامية بوجه الحضارة الغربية، رافضين من منطلق الخشية من الاستعمار كلما هو غربي[٤١].

وكان الشيخ كاشف الغطاء من أولئك الرافضين للحضارة الغربية داعياً إلى الالتزام بالحضارة الإسلامية، والنهل من منبع الإسلام الصافي الخالي من الشوائب والبدع كأساس للرقي والنهضة، مؤكداً إن العرب والمسلمين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من عزة وتفوق إلا بالتزامهم بتعاليم الإسلام الصحيحة[٤٢].

يرى الشيخ كاشف الغطاء في الغرب قوة استعمارية طامعة تمهد لسيطرتها على البلدان العربية والاسلامية بأساليب متنوعة، فالغرب برأيه هو الأساس بنشر الطائفية بين المسلمين والمسيحيين بغية السيطرة على بلدانهم. فهؤلاء الغربيون ينشرون كتباً باسم المسيحية وهُم ليسوا منها[٤٣]، والغرب أساس الاستعمار وطمع

بثروات الشعوب والبلدان الاخرى الأقل تطوراً بتوحش[٤٤].

وقد دعا الشيخ كاشف الغطاء لمواجهة المخاطر الغربية التي تهدد المسلمين وتريد السيطرة على بلادهم، وحث المسلمين على التوحد ضمن إطار (الجامعة الإسلامية)، لأنها القوة القادرة التي يستطيعون بواسطتها مواجهة الأطماع الغربية، لكنه يربط دعوته لهذه الجامعة بتوفر دعامتين رئيسيتين لقيامها، وهاتين الدعامتين هما (الإسلام) و(اللغة العربية) فبهما تقوم الجامعة الإسلامية التي توفر القوة والمنعة للمسلمين (هاتان الجامعتان هما الداعيتان لكل جامعة ووحدة)، فاللغة العربية هي التي توحد العرب والمسلمين تحت لوائها مشكلين مجتمعاً إسلامياً واحداً، استطاع الوصول إلى أعلى مراتب التطور والقوة، فيقول الشيخ عن اللغة العربية إنها: (من أقوى العرى والروابط لحفظ تلك الجامعة الإسلامية بين تلك الأمم المختلفة والشعوب المتفرقة والعناصر الشتى، وبحفظ تلك الجامعة بلغ الإسلام أوج عزه ونزل في برج ارتفاده)[٤٥].

وعندما تخلى المسلمون عن اللغة العربية حل بهم التخلف والانحطاط، وتمزقت الأمة وتشتت وضعفت لأنها تركت لغة القرآن، فكان أن "ضاع ملك الإسلام وتلاشت الممالك الإسلامية في شرق الأرض وغربها، وسرى الداء الى قلبها" [٤٦].

ويمكن القول: إن دفاع الشيخ كاشف الغطاء عن اللغة العربية ووضعها كأساس لأي وحدة إسلامية جاء كرد فعل قوي لسياسة التتريك العثمانية ومحاولتهم إلغاء دور اللغة العربية، وهو ما حصل من خلال جعل اللغة التركية هي الأساس في التعليم والإدارة والصحافة، ونظرتهم العدائية للعرب ومحاولتهم الحط من شأنهم للتقليل من دورهم التاريخي، ونعتهم بنعوت وصفات مؤذية لمشاعرهم وكرامتهم، وهذا السبب كان دافعاً قوياً لكثير من المفكرين العرب للرد على الاتهامات التركية بقوة دفاعهم عن لغتهم[٤٧]. ومن غير المستبعد أن السلطات التركية قد صادرت كتاب الشيخ (الدين والاسلام)، لما تضمنه من تمجيد اللغة العربية وتصريح إلى إن الوحدة الإسلامية لا يحققها إلا العرب ولا تكون إلا إذا كان لسان القوم عربياً[٤٨]،

فهي إشارة للعثمانيين الذين استبدوا وحولوا بلاد المسلمين إلى هدف مقصود لأطماع الغرب الاستعماري.

ويزيد الشيخ من حدة دفاعه عن اللغة العربية بتأكيد أكثر رسوخاً مفضلاً اللغة العربية على سائر اللغات، وأن اللسان العربي هو اللسان الطبيعي للإنسان الموافق لأهواء النفس "حتى كأن اللسان العربي هو اللسان الذي خلق مع الإنسان وخلق الإنسان وارتقى بارتقائه" (٤٩).

واستمر الشيخ كاشف الغطاء بهجومه على الغرب الطامع والعدو المتربص بالمسلمين، فقال في قصيدة له محذراً من هذا العدو المقتدر:

أظهر الغرب ما أجن من الغدر وأبدى كوامن الأضغان
وأحاطت بالمسلمين علوج البغي من كل جانب ومكان
قد دهاكم ويل فماذا التمادي وأتاكم سيل فماذا التواني
جاءكم جارف من الغرب تيّار يهدّ البنا وأسّ المباني(٥٠)

ولأجل إيجاد الوسائل والأسباب التي تقود إلى ارتقاء الأمة ونهوضها، فقد قام الشيخ كاشف الغطاء بمراجعة لتاريخ الأمة وتراثها، باحثاً عن حل لواقعها المتخلف وخلاصاً لها، فكان أن اهتدى إلى أنّ ما حققه العرب المسلمون من تطور وتفوق على أمم العالم في عصورهم كان بالتزام الأمة بعقيدتها وكتابها (القرآن الكريم)، فوجد الشيخ في هذا نهجاً يمكن أن تسير فيه الأمة وتعيد قدرتها على النهضة والتطور.

وأكد الشيخ أن للمسلمين القدرة على تحقيق النهضة من خلال رجوعهم إلى الأصل والأخذ بالأسباب التي أخذ بها المسلمون الأوائل، فكان الصعود والنهوض والتحليق وانتشار صيت الإسلام في العالم، وكان للمسلمين الحظ الكبير من القوة والنفوذ وسعة في الملك، فقد بلغوا ذلك بتوفر عاملين هما بمثابة الجناحين، استطاع فيهم المسلمون من السيادة والتحليق، وهاذان الجناحان هما: الجناح الأول (تواصل العلم والعمل)، والجناح الثاني (تناصر السيف والقلم) (٥١).

وهذه الرباعية الذهبية التي يطرحها الشيخ كاشف الغطاء التي تشكل منها جناحيّ الطائر القدسي

(الإسلام) هي التي يدعو المسلمين إلى الأخذ بها للوصول للغاية المنشودة من الرقي، والخروج من حالة الانحطاط التي هم فيها، والانطلاق متقدمين نحو المجد، كما حصل مع المسلمين الذين ساروا على هذا النهج.

وكانت رؤية الشيخ للفترة التاريخية التي تحققت فيها شروط النهضة متمثلة بتوفير هذين الجناحين، لذا أصبحت الأمة الإسلامية في قمة مجدها، وكان ذلك في أواسط فترة الخلافة العباسية، فقد أصبح الإسلام في تلك الفترة أكبر ما يكون من النسور "فأنشب مخالبه في أعماق البسيطة، وأثبت رجليه على تخوم الأرض، واحتك بظهره أعنّة السماء من هذا المحيط، واستقبل بوجه الكعبة المقدسة من ناحية الجنوب حتى أطل برأسه من وراء خط الاستواء، فمد ذنبه على أقصى المعمورة من الشمال، ونشر جناحية على الشرق حتى وضع قوادمه على جدار الصين، وظلّل بالثاني طرف المغرب إلى منتهى المحيط، فقال للشمس: أينما أشرقتِ ففي ظلالي، وللسحاب: أينما دقت ففي بيت مالي، بلغ هذا الطائر المبارك الميمون من الفخامة والعظمة في أقل من قرن ونصف ما لم تبلغه أكبر دول العالم في عدة قرون، لا قبله ولا بعده" (٥٢).

والشيخ كاشف الغطاء وهو يقدم العوامل التي أدت بالعرب والمسلمين إلى التفوق ووصولهم إلى قمة سلطانهم، محاولاً النفخ في الروح الإسلامية لاستعادة وعيها، وبالتالي تحقق النهضة القادرة على وقف الأطماع الاستعمارية الغربية التي تهدد الإسلام والمسلمين، وهذا الخوف من الغرب كان يشترك فيه أكثر المصلحين الذين رأوا في الحضارة الغربية خطراً يهدد الإسلام(٥٣).

وكان الشيخ كاشف الغطاء من الذين أثر فيهم هذا الوضع فزاد من آلامهم وشعورهم بالحزن فيما وصلت إليه حال الأمة، وما وصل إليه الإسلام من حال "فاختنق صوته وأخفتت دعوته وأصبح كجؤجؤ في وسط العراء تكتنفه الذئاب والوحوش والقشاعم والنسور، كل يوم تنهش قطعة من لحمة وتكسر عظيماً من عظمه، وهو ينظر بعينه لا أيدي تدفع ولا جناح سلاح يمنع، فهو طعمة للحشرات من الهوام والبغاث من

الطير التي تستنسر في أرضه، وتلك زيادة في العلة" [٥٤].

فهل هناك أسوء من هذا الحال وبلاد المسلمين عرضة للالتهام قطعة بعد أخرى، وأموالهم مسلوبة، يتصرف الأجانب في ممالكهم ويعبثون بثرواتهم، وأغلب البلاد الإسلامية مقسمة بين البريطانيين والفرنسيين والهولنديين والروس، ولم يبقَ سوى عدد قليل من البلاد الإسلامية مستقلة لكنها تعيش الخوف والخطر من الغزو الأجنبي[٥٥].

وحتى تستطيع الأمة مواجهة الأخطار، ولأن لها في تاريخها عبرة ومنفعة، فعليها العودة إلى المنبع لتأخذ منه الحل وتستعيد قوتها، فتكون قادرة على مواجهة المخاطر التي تهدد كيانها. وهو ما طرحه الشيخ بتوفر الجناحين (العلم والعمل) وهما أداتين للوصول للغاية الحيوية السيف والقلم وهما "آلة الملك وأدوات القوة وسياج الملة ومعدات الرقي، فللسيف رجال وللأقلام رجال"، وهي دعوة موجهة إلى ذوي الهمم من أبناء الأمة الذين يشعرون بوضع أمتهم، وفي نفس الوقت يعرفون السبيل إلى انتشالها من واقع الانحلال والتدهور وقيام الإصلاح فيها، وهذا لا يكون إلا بالعودة للالتزام بشريعة الإسلام، فهي الروح المتدفقة التي استطاعت بالعصور الزاهية أن تحقق الرفعة والتوسع، والآن هي قادرة على نفس الفعل إذا ما سارت على نفس النهج.

يبدي الشيخ ملاحظاته الدقيقة على الأساليب التي يستخدمها الغرب لتحقيق أهدافه وأطماعه الاستعمارية وهو في قمة زهوه وقوته التقنية والعسكرية، وهو يشير إلى بعض هذه الأساليب من قبيل ما يكتبه وينشره بعض الكتاب –لعله يقصد المستشرقين– وأموال تُنفق لاستمالة الناس ودعايات روحية دينية تعضد قوة عسكرية مدججة بالسلاح، بالإضافة إلى الأساليب السياسية والمؤتمرات والاتفاقات وما يؤدي إلى الغلبة[٥٦].

وإذا كانت الأمة قد وقفت ساكنة دون حراك أمام ما يحيط بها من أخطار وما حل بها من سوء حال، فإن الشيخ لا يستطيع أن يكون صامتاً، فكان هدف دعوته لفت أنظار أبناء الأمة واستعادة التفكير بتاريخهم،

محركاً فيهم غيرتهم واستنهاض عزائمهم بكل عناصرها وشعوبها، داعياً إياهم باسم الإسلام الذي جمعهم ووحدهم أن يتبعوا كل الوسائل التي تعيد إليهم قوتهم، وأن يلتمسوا طريق الجد والاجتهاد، وأن ينفضوا عنهم أدران الكسل والخمول، وينهضوا متوثبين قاصدين الرفعة والرقي لإعادة مجدهم المعروف والاستقرار في مقامهم الذي يستحقونه والذي كان مقام آبائهم وأجدادهم، ولا يتحقق ذلك إلا "بأن ينتبهوا من خدر الكسل إلى نشاط العمل، وينهضوا من وهدة الجهل إلى ذروة العلم، ويمتطوا صهوة المعارف وغارب الطلب، ويبذلوا النفس والنفيس دون التفاني على التمسك بعرى هذا الدين، فإن فيه معادن البركان وينابيع الخيرات وجماع السعادات، إلا ألا إن الدين السعيد دين الوحدة والتوحيد" [٥٧].

مثلما كان العرب المسلمون قد أولوا العلوم والمعارف جل اهتمامهم وبذلوا جهوداً عظيمة للحصول عليها وترجمتها، فكان أن حققوا قفزات علمية ومعرفية واستثمروا العلوم والمعارف في ميادين رحبة في صناعات وفنون وآداب جديدة، فامتدت رقعة الزراعة واتسعت دائرة الصناعة، وكانت هناك اكتشافات جديدة في كل العلوم، فبلغ العرب المسلمون أعلى درجات الرقي والحضارة، فكان ذلك أساساً من الأسس التي قامت عليها نهضة العرب الكبرى[٥٨]. وهنا يرى الشيخ كاشف الغطاء أن أبناء الأمة لا بد أن يتسلقوا سلّم المجد متخذين الوسيلة لذلك العلوم والمعارف، وأن يبعدوا عن تفكيرهم الانبهار بحضارة الغرب دون عمل، بل إن المسلمين قادرون على بلوغ المكان المرموق الذي يفوق ما وصل إليه الغربيون، إذا ما التزموا بشريعة الإسلام واتخذوا طريق العلم والعمل، ونظروا إلى ما حققته الأمم الراقية من تطور وتمدن، على أساس أنهم قادرون على فعل الشيء نفسه بالجد والاجتهاد، مؤكداً في الوقت نفسه إن ما حققه الغربيون من تقدم لم يكن إلا تطبيقاً بما جاءت به الشريعة الإسلامية القائمة، على (العلم والإيمان) والتي تركها أهلها واستفاد منها الغربيون وانتبهوا إليها فوضعوا الجرابات والقروض المالية، وأخذوا بإنشاء المستشفيات وكثير من المشروعات وقامت الشركات، وخصصوا أرباحاً لتوسعة المدارس والمكاتب، ونشر دينهم وثقافتهم، والعناية والاهتمام بالكليات، وترقي الكمالات، وخصصوا قسماً من أرباح الشركات لإنفاقها على البعثات

التبشيرية و"دعاة دينهم وحماة ملتها"[٥٩].

عندما يحض الشيخ المسلمين على طلب العلم فهو ينطلق من كون الإسلام هو الذي يدفع إلى طلب العلم والتفوق، وليس من دليل أقوى على ذلك من قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" [٦٠].

ودليل ذلك الانجازات العلمية والفكرية التي حققها العرب المسلمون بعد أن خرجوا من حالة الشرك ودخلوا حالة الإسلام[٦١].

ولا بد من التأكيد على إن الشيخ كاشف الغطاء في تذكيره المسلمين لما حققه الغرب من تطور، ودعوته لهم بالأخذ بأسباب هذا التطور، إنما هو انتقائي في عملية الأخذ والاستفادة من الحضارة الغربية، فهو يدعو إلى الأخذ بما يناسب المسلمين وشريعتهم والاقتباس من الغرب بما لا يتعارض مع أصول العقائد الإسلامية[٦٢]، وهو لا يمانع من الانتفاع من حسنات الحضارة الغربية التي تساعد المسلمين في نهضتهم[٦٣].

كما لا ينظر للغرب بوصفه يمثل المسيحية، بل العكس يرى فيه متخلياً عن الدين وأخلاقياته، مشيعاً الانحلال والفساد وإنكار الحياة الأخروية[٦٤].

وانتقائية الشيخ هذه جاءت من شدة مخاوفه من الحضارة الأوربية، وحذره منها باعتبارها تمثل التهديد الحقيقي للبلاد الإسلامية، من خلال محاولة هذه الحضارة فرض سيطرتها على هذه البلاد. فالغرب عند الشيخ كاشف الغطاء غير مأمون الجانب، لأنه بالحقيقة "وحش كاسر سفاك للدماء" يتصف بالمكر والخداع، فاقد للمصداقية والالتزام بالوعود والعهود، فضلاً عن إن حضارة الغرب لم تأت إلا "بالمآسي والويلات" التي أصابت البشرية، وعملت على فساد الأخلاق وتمزيق نواميس الشرف، لأنها لا تملك القيم الروحية، بل إنها مدفوعة بنهم استعماري عنيف للسيطرة والتوسع، برغم إنها لم تقدم للإنسانية إلا البهارج، وهذه أحالت حياة البشر إلى جحيم فنغصت عيشهم وكدّرت صفوة حياتهم[٦٥]. وكان شعور الشيخ كاشف

الغطاء بالخطر الكامل وراء حضارة الغرب لما تؤمن به من مبادئ سيطرة وتوسع ورغبة في الحصول على خيرات العالم وخاصة البلاد الإسلامية، فإنه فضل الحياة الطبيعية التي رمزها "البعير العاري" على المدنية الغربية التي رمزها "البخار والكهرباء" [٦٦].

ويبدو إن الشيخ أراد بهذا التمثيل جعل الصراع حضارياً بين حضارة العرب المسلمين وحضارة الغرب التي بلغت فتوة الشباب، فجاءت تحاول إنهاء هذا الصراع التاريخي لصالح قومهما باحتواء المسلمين حضارياً، مرة بالعنف ومرة بالإغراء وتشجيع المهزوم على تقليد المنتصرين. وأمام هذا التحدي فكان لا بد من التصدي لهذه الحضارة، فكانت الدعوة لليقظة والحذر [٦٧].

والمثال الواضح لغدر الحضارة الغربية وفرض هيمنتها الثقافية والحضارية، نفاذ هذه الروح الغربية في جسد الشرق وجسد العالم الإسلامي، منتزعة منه كل عاطفة شريفة وإحساس روحي وشرف معنوي ومجد باذخ واستقلال ذاتي.

وتزداد نقمة الشيخ على الحاضرة الغربية وهو يراقب محاولاتها في تمزيق العالم الإسلامي، متغلغلة بين صفوفه مبتدئة بغزو ثقافي، ممهدة السبيل لغزو أكبر وأشمل. لكن ما يثير حزن الشيخ وألمه بشكل قاس أن أبناء الشرق يساعدون الروح الغربية على التسلل إليهم[٦٨].

ولأن الغرب هدفه ومبتغاه القضاء على الإسلام وقتله في نفوس المسلمين حتى تسهل مهمته في التسلط والسيطرة، فلابد من التصدي له ونبذ ما جاء به من مدنية غريبة عن واقع الشرق والدفاع عن الإسلام والتمسك بشريعته[٦٩]. وكان من أبرز الطرق التي استغلها الغرب لنشر ثقافته هي البعثات التبشيرية التي مثّلت طلائع المد الاستعماري، وقد وظفت الدين لخدمة هذه الأغراض الاستعمارية[٧٠]، وقد جرّت هذه البعثات عليها غضب المسلمين نظراً لما كانت تقوم به من مجادلات شفهية وكلامية أثارت علماء المسلمين، فاندفعوا للانكباب على درس الأديان ليستنبطوا منها الحجج للدفاع عن عقيدتهم، وبالتالي كفروا بعلم الغرب ومدنيته[٧١].

وقد تنبه الشيخ كاشف الغطاء إلى حقيقة هذه الجمعيات فعدّها من أكثر الطرق الغربية خطورة، فهي تعمل على بلبلة عقول أبناء الشرق وقلعهم من جذورهم الحضارية، فقد أخذت هذه الجمعيات تنتشر بشكل واسع "حتى غشي طغيانهم واشتد عدوانهم، فعادوا في هذه السنين يسبون ديننا جهرة ويشتمون نبينا علانية، وقد فتحوا مدارسهم ونوادي التبشير ومحافل الدعوة ومحاضر المستشفيات، يستميلون صبياننا ويستغلون ولداننا ويحاربوننا في بلادنا"(٧٢).

ومع كل ما تقوم به هذه البعثات التبشيرية من أعمال مخالفة لحضارة الشرق، فإن الحكومات تقف مكتوفة الأيدي حيال ذلك، رغم أنهم يبثون نشراتهم ومؤلفاتهم في الأسواق والشوارع والتراموايات علانية، والحكومة المحتلة (بريطانيا) لمصر تشجع ذلك وترقص طرباً له(٧٣).

وكان الشيخ خلال زيارته لمصر ١٩١١ ورؤيته الانتشار الواسع للمبشرين ودعوتهم للمسلمين لتغيير دينهم وترغيبهم على ذلك بأساليب مختلفة(٧٤)،قد ولد لديه شعوراً بالغضب والاستفزاز، فما كان منه إلا أن يدخل إحدى الكنائس التابعة لهذه البعثات التبشيرية، ويصعد المكان المخصص للخطابة رافعاً صوته بمهاجمة هذه البعثات والتنديد بها مدافعاً عن الإسلام وقيمه، حتى وصل الأمر إلى حدوث مواجهة مع القيمين على المركز التبشيري لأنه رفض النزول عن مكان الخطابة(٧٥).

والواقع إن مخاوف الشيخ الكبيرة من هذه البعثات التبشيرية لها ما يبررها، إذ كانت الدول الأوربية وخاصة فرنسا وبريطانيا وروسيا لها مطامعها في البلاد العربية وتتنافس فيما بينها لفرض هيمنتها ونفوذها، فعمدت كل من هذه الدولة على افتتاح المدارس التبشيرية والشركات، وأخذت تدخل في الشؤون الدينية وهي بالحقيقة تخفي وراء ذلك أهدافاً سياسية(٧٦).

ومما يزيد من خطر الغزو الثقافي التبشيري هو تخلف المسلمين بالنسبة لما حققته المدنية الغربية من تطور ورقي، وإهمال المسلمين التعليم ودوره في نهضتهم، فبقيت نفوسهم على سذاجتها وأهملوا المعرفة، وأصبحت معارفهم تعتمد على ما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم، وعافوا اكتشاف الحقيقة وحب العلوم،

فضعفوا واستكانوا، واستيقظ عدوهم المتربص ووجد في تخلفهم الفرصة المطلوبة للهجوم والانقضاض، فهجم بجيوش المنذرين والمبشرين والدعاة على نفوس المسلمين، فوجدوها خاوية من كل منعة وحصانة، فعبث هؤلاء المبشرين بعقول المسلمين وأبعدوهم عن الإصغاء إلى الطقوس والشرائع الإسلامية، وأخمدوا مصابيحها فأصبحت الأمة في حالة من التيه والضياع، فانتشرت أفكار الزندقة والإلحاد، وترك الناس دينهم واندفعوا متشبثين بأوهام الطبيعة(٧٧).

وكان ذلك سبباً في اهتمام أكثر المصلحين بوجوب الإصلاح الديني كما أكدت على ذلك تعاليم الإسلام، والمقصود به ترتيب وتنظيم الأمور والعمل ضد الفساد، فالإصلاح الذي دعا إليه المصلحون المسلمون – ومنهم الشيخ كاشف الغطاء– يغاير الإصلاح الديني البروتستانتي، وهو لا يعني الثورة أو التغيير الجذري، فالإصلاح يعني إحياء وتجديد الفكر الديني، وهو إجراء يهدف إلى الرقي والتكامل لتمهيد السبيل لإصلاح الأمور الاقتصادية والسياسية. وعلى هذا الأساس فكان الإصلاح الديني خطوات إصلاحية أولية في فكر وثقافة المسلمين(٧٨) ليكونوا أكثر استعداداً للنهضة وتوفر شروطها.

وقد أدرك الشيخ كاشف الغطاء أهمية الإصلاح الديني لقدرته على تقوية المسلمين وتأجيج الروح القتالية ضد الغزو الغربي، فضلاً عن تأثيره الكبير في رفع الجهل والعصبية، وتمكين الدين الصحيح في النفوس وتشذيب ما أصاب العقيدة الإسلامية من أباطيل وخرافات ساعدت على نفاذ الروح الغربية إلى الجسد الإسلامي(٧٩).

ويحمّل الشيخ كاشف الغطاء مسؤولية ما لحق بالعقيدة الإسلامية وما أصابها من ضعف ووهن على عاتق علماء الأمة ومصلحيها، فهم الذين أهملوا الدعوة الصحيحة وواجب الإرشاد للناس، بإهمالهم التعليم والحديث الذي يقرب العقائد الإسلامية من الأذهان والأفكار، بعيدا عن التعقيدات الصناعية والمجادلات الكلامية ليكون مقنعاً وتقبل به النفوس(٨٠).

وقد كان ما أصاب العقيدة من تعقيد وجمود سبباً في توجيه اتهامات للإسلام بالانغلاق الفكري والجمود

الذهني، ومعاناة المسلمين من الإفلاس الثقافي والتعليمي وتدهور الدولة التي تدين بالإسلام[٨١].

لكن الحقيقة أن المسلمين هم الذين ابتعدوا عن التعليم الذي يؤكد عليه الإسلام وبقوا على الجمود، وقد أدرك الشيخ ذلك فدعا إلى الأخذ بأساليب التعليم الحديثة، وكتابة العقيدة بأسلوب حديث قادر على الوصول إلى كل المسلمين، وتنقية العقيدة مما لحق بها من زيادات وأباطيل مما جعلها عرضة للنفور وعدم القبول، فضلاً عن الأسلوب القديم الذي كتبت به تلك العقائد مما زاد من تعقيداتها وصعوبة فهمها فأصبحت لا تلائم روح العصر[٨٢].

وهذا التعقيد في كتابة العقائد هو الذي جعل الفتور يدب في الأمة، فقد أبعد عن الدين سماحته وسهولته، وزاد من الجدل غير المجدي بالعقائد، مما ولد اعتقاداً بمنافاة الشريعة الإسلامية للعلوم العقلية[٨٣]، وهي تهمة ردها المفكرون المسلمون، وأكدوا على توافق الإسلام الحقيقي الخالي من الشوائب مع العلوم العقلية والتطورات العلمية، وذهب البعض لأكثر من ذلك معتبرين قوانين التقدم والرقي والسعادة الإنسانية هي قوانين الإسلام نفسه[٨٤].

ومن أجل تأكيد عصرية الإسلام، ورد الانطباع من وجود تناقض وعدم انسجام بين الإسلام والعلوم الحديثة، فقد اقترح الشيخ لذلك انتداب لجنة من علماء الأمة وفلاسفتها ومفكريها، تقوم بمهمة تشذيب العقائد مما لحق بها وكتابتها بطريقة عصرية سهلة تقبل عليها النفوس، بأسلوب يخرق الحجب الكثيفة بعيداً عن الغموض، فتكون قادرة على الإقناع، لأن الأسلوب الذي كتبت فيه تلك العقائد والشرائع يمتاز بالصعوبة ولا ينتفع به إلا النخب الدينية، فضلاً عن أن الأسلوب القديم في الكتابة لا يضم سوى العقائد دون أن يعطي أدلتها وبراهينها، وهو ما أثار شكوك المشككين وأدى إلى مروق الكثير من النشء الصغير والأحداث واتجاههم إلى اعتناق الأفكار الإلحادية والطبيعية[٨٥].

يبدو كاشف الغطاء على اطلاع واسع على الثقافة الغربية، وقارئ جيد لنتاجات الفكر والعلوم الغربية، ويظهر ذلك من ردوده على النظريات والأفكار الأوربية المادية والمنطلقة من وجهة نظر دينية، كما أنه

يستخدم المصطلحات العملية بلغتها الأصلية دون ترجمتها للعربية ومن هذه المصطلحات العلوم الطبيعية (كالفيزيولوجيا) و(البيولوجيا) و(الجيولوجيا) و(الكيماويات) و(الميكانيكيات)[٨٦]، ويرى في الفكر الغربي الحديث خطراً على الإسلام ومن ذلك نظرية النشوء والارتقاء لدارون ومن يروج لأفكاره في الشرق، أمثال شبلي شميل وسلامة موسى، فهؤلاء هدفهم القضاء على كل الأديان والمذاهب والآداب[٨٧].

يمثل موقف الشيخ كاشف الغطاء من الغرب موقف المعادل الحضاري الذي يرى في الحضارة الإسلامية شأنها الإنساني الكبير ودورها التاريخي، تمثل ذلك بما قدمه العرب والمسلمون من آثار معرفية وعلمية وحضارية، كما هو حال غيرهم من الأمم ومن هذا الأصل فأن كل المجتمعات البشرية ساهمت في رفد الإنسانية بمنجزاتها الحضارية. وينوه الشيخ إلى احترام العقيدة الإسلامية لكل الأديان والعقائد، وهذا لا يجعل المسلمين بموضوع معاداة الأجانب، فالشريعة تدعو بوضوح لاحترام الأجانب وخصوصاً الضيوف منهم على البلدان الإسلامية، مهما كان دينهم وأصلهم العنصري، عدواً كان أم صديقاً[٨٨].

تطغى السمات الدينية الأخلاقية على رؤية الشيخ كاشف الغطاء لما سببته الحضارة الغربية من تهاوي للقيم والأخلاقيات وتحطمها حسب وجهة نظره، إذ يعبّر عن مرارة رجل الدين التقي وهو يرى حالة الضياع التي يعيشها البعض من المسلمين المتأثرين بالغرب وأنماطه الحياتية، وعلى سبيل المثال فهو يهاجم بشدة انتشار تعاطي الخمور والترويج لها في المدن الإسلامية وبشكل علني، معبراً عن ألمه الروحي لهذا الانتشار البعيد عن القيم الإسلامية وهو يقول في ذلك: "زجاجة الخمر الموضوعة في حوانيت بلاد المسلمين تقول للمسلمين أنا جئتكم من أوربا على رغم أنوفكم لأفقأ عيونكم وأنشر عيوبكم وأنقص أموالكم وأسلبكم عقولكم وأحارب قرآنكم"[٨٩] ويستدرك الشيخ كاشف الغطاء معيباً على المسلمين تقهقرهم وانكفائهم معتمدين في اقتصادهم على الغرب حتى أصبحوا مملوكين له ومحتاجين إليهم في كل شيء[٩٠].

وتزداد لغته المعيبة قسوة في محاولة منه لاستنهاض الهمم وضخ الحماس حين يشير إلى ما حققه الغرب من تقدم علمي، فسيطروا على السماء وشقوا البحار وسخروا القوى الطبيعية لصالحهم، في الوقت الذي

يرزح فيه المسلمون بالجهل والتخلف وتقليد المدنية الغربية بمظاهرها وكمالياتها، ليستمر الغرب في تطوره المتواصل باختراعات جديدة يستخدمونها للقضاء على الإسلام والمسلمين وغزو بلادهم[٩١].

كانت صرخات الشيخ التحذيرية مبعثها شعوره بقوة الأطماع الغربية وجشعها للاستيلاء على البلدان الإسلامية، وهو بكل الأحوال لا ينطلق من موقف العدو بل الرافض لهذه الهيمنة الاستعمارية والثقافية، كرجل دين متنور تجديدي. فنراه يميز بين العلوم والمعارف التي تخدم الإنسانية وتساعد بالتغلب على صعوبات الحياة التي أنتجها الغرب، وبين مظاهر غريبة وبعيدة عن القيم والأخلاقيات الدينية ولكل الأديان، وهذا التفريق يشكل الأساس الفكري لمواقف الشيخ كاشف الغطاء. ولعل المحاور الداخلية التالية التي دوّنها كاشف الغطاء ببراعة تُظهر العلة الأساس التي أدركها والتي يرى فيها سبب تراجع المسلمين، وهي العلة نفسها التي حفزته في مواقفه وآرائه الناقدة للغرب وثقافته، إذ أثارت عنده روح الحذر واليقظة من الغايات التي تقف خلف اندفاع الغرب كمستعمر ومهيمن ثقافي وسلوكي، فكل ما حصل للمسلمين من مصائب وتقهقر أصله من الغرب وأطماعه ويقول الشيخ: فلو سألتني ما السبب الوحيد في ضعف المسلمين، لقلت: الغاية هي ضعف الدين، ولو سألتني: ما سبب ضعف الدين في المسلمين، لقلت: زخارف الدنيا ونفوذ الروح الغربية التي دخلت فيهم، ففرقت ما بينهم، ومزقت كل ممزق، وتركتهم يخربون صباحي ((حصون)) عزهم بأيدهم، ولو قلت ما الذي أوجب دخول هذه الروح الخبيثة في هذا الجسد الشريف، وما الذي ساق هذا الهواء المسمم إلى الحصن الذي مَرَّ عليه ردح من الزمان وهو مطلسم، قلت: عدم قيام المصلحين وسكوت الآمرين بالمعروف والناهين، ولو قلت: ما الذي أوجب سكوتهم عن تمزيق دينهم بترقيع دنياهم، فلا هذا ولا ذاك، قلت: في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء؟[٩٢].

الخاتمة:

ينطلق الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في مواقفه من الغرب من كونه رجل دين ذو تعليم ديني ومن أسرة دينية لذا فقد كان حاداً وصريحاً في موقفه المناهض للغرب كما كان لمعايشته استعمار البلدان

العربية والإسلامية واحتلالها من قبل الجيوش الغربية أثره الكبير في تشكيل رؤيته هذه، إذ رأى الشيخ كاشف الغطاء الغطرسة الاستعمارية وضعف المقاومة لهذا الغزو ليثير في نفسه التساؤلات وإرادة استعادة الدور التأريخي للمسلمين ومجدهم عندما كانوا بأوج قوتهم وهو يرى إن التزام المسلمين بعقيدتهم الدينية وتراثهم سيكون هو الحاكم في تطورهم وتقدمهم لأنهم عندما تخلوا عن هذا الارتباط مع العقيدة والتراث وما وضعه الإسلام أصابهم الضعف وتناوشتهم قوة الأطماع والاستعمار.

يرى كاشف الغطاء في الغرب قوة طامعة تريد السيطرة على بلاد المسلمين وإفراغها من محتواها العقائدي الإسلامي وهي تعتمد في سبيل ذلك عدة وسائل أهمها نشر الفساد وأنماط الحياة الغربية بين الشباب المسلمين لتمهيد الطريق أمام الغزو العسكري بعد إن تتم لهم السيطرة الثقافية.

يطلب كاشف الغطاء من المسلمين الوحدة وهو يضع شروطاً لهذه الوحدة تنبع من داخل أيمانه الديني ورؤيته الدينية فهو يدعو لالتزام الإسلام نهجاً ومنهجاً وعقيدة وطريق للإصلاح.

حاول كاشف الغطاء إن يكون فاعلاً ضمن التيار الديني والإصلاحي وامتداد لمدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم من المصلحين وتنقل في عدد من الدول الإسلامية للاطلاع ولنشر أفكاره.

مثل كاشف الغطاء مدرسة النجف الدينية ورؤيتها للأحداث وكان مشاركاً فاعلاً في النشاطات السياسية والاجتماعية والتعليمية والإصلاحية وكان من رجال الدين النشطين في مجال الدعوة لاستعادة مجد الإسلام والمسلمين وصد الهجمات الثقافية والعسكرية الغربية.

الهوامش:

١- محمد حرز الدين، معارف الرجال في التراجم العلماء والأدباء، تعليق محمد حسن حرز الدين، ج٢، مطبعة الآداب، النجف الاشرف ١٩٦٤، ص٢٧٢.

٢- علي الخاقاني، شعراء الغري ، ج١٠، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٦، ص٩٩ .

٣- محمد جعفر محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ط١، ج٣، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٥، ص١٨٣ .

٤- محمد حسين كاشف الغطاء، العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية، ط١، تحقيق جودت القزويني دار بيان للنشر

والتوزيع، بيروت ١٩٨٨، ص١٥ .

٥- منير بكر التكريتي، أساليب المقالة في الأدب العراقي الحديث والصحافة العراقية، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٦، ص٢٦١ .

٦- علي الخاقاني، المصدر السابق، ص١٠٠ .

٧- منير التكريتي، المصدر السابق، ص٢٦٢ .

٨- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين الاسلام أو الدعوة الاسلامية، ج ١، دار المعرفة للطباعة، بيروت دون تاريخ، ص٢٠ .

٩- محمد حرز الدين، المصدر السابق، ص٢٧٣ .

١٠- جعفر محبوبة، المصدر السابق، ص١٨٣ .

١١- جعفر الخليلي، هكذا عرفتهم، ج٢، دار التعارف، بغداد بلا تاريخ، ص٢٧٧ .

١٢- محمد حسين كاشف الغطاء، في السياسة والحكمة دار البلاغ، بيروت ١٩٨٨، ص١٠ .

١٣- منير التكريتي، إدباء صحفيون، ط١، جامعة بغداد، ١٩٧٩،ص٨٣ .

١٤- محمد حسين كاشف الغطاء، جنة المأوى،ط١ جمع وتعليق محمد علي القاضي ، مطبعة شركة جاب بتريز ١٣٥٨،ص٢٦ .

١٥- منير التكريتي، فن المقالة، ص٣٨٩ .

١٦- العرفان (مجلة)، ج٩، مجلد (٣٦)، أيلول ١٩٤٩، ص٩٥٩.

١٧- جعفر الخليلي، المصدر السابق،ص٢٤٤.

١٨- علي الخاقاني، المصدر السابق،ص١١٣ ،

١٩- محمد حسين كاشف الغطاء، جنة المأوى،ص١٨ .

٢٠- علي الخاقاني، المصدر السابق، ص١٠٠.

٢١- محمد حرز الدين، المصدر السابق، ص٢٧٥ .

٢٢- محمد حسين كاشف الغطاء، العبقات، ص١٢ .

٢٣- محمد حسين كاشف الغطاء، تعليقات على العروة الوثقى، المطبعة المرتضوية، النجف بلا تاريخ، ص٢١٤ .

٢٤- محمد حسين كاشف الغطاء، العبقات، ص٢٥

٢٥- للمزيد من الاطلاع حول نتاجات الشيخ وكتبه ولجرد بهذه الكتب ينظر: حيدر نزار السيد سلمان، محمد حسين كاشف الغطاء ودوره الوطني والقومي، ص١١، معهد العلمين للدراسات العليا، النجف الاشرف ٢٠٠٧، ص٥٨-٦٥

٢٦- محمد حسين كاشف الغطاء، التوضيح في بيان ما هو الإنجيل وما هو المسيح، ج١، مصر١٩١٢، ص٥.

٢٧ الغرب: مصطلح أستخدمه الكثير من المؤرخين والمفكرين وهو ذو دلاله فكرية ثقافية ووصفه مفهومية نقلته من المعنى الجغرافي ويصبح هذا المصطلح صفة تطلق على مجمل المناخ الحضاري الثقافي المتشكل تاريخياً في أوربا بعد حدوث تحولات وصراعات سياسية واجتماعية عنيفة: ينظر: موقع مؤمنون بلا حدود على شبكة الانترنيت mominon.com.

٢٨ -جواد الورعي، حبيب عفيفي وآخرون، موسوعة الإمام محمد حسين كاشف الغطاء، المدخل الأول، ط١، عمار جمعة، محمد حسين حكمت، مركز أحياء التراث الإسلامي، طهران ٢٠١٨، ص٣٤٤-٣٤٥.

٢٩- المصدر نفسه ، ص٣٤٥.

٣٠- محمد أركون، لوي غارديه، الاسلام بين الأمس والغد، ترجمة علي المقلد، دار الفارابي، لبنان٢٠٠٦، ص٦٨-٨٨.

٣١- من الملاحظ إن الشيخ يستخدم بشكل مترابط مصطلح الشرق بشكل مترافق مع مصطلح العالم الإسلامي ربما للدلالة على العالم الأسيوي أو الشرق الأوسط.

٣٢- محمد حسين كاشف الغطاء، في السياسة والحكمة، ص٨.

٣٣- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤، الأهلية للنشر والتوزيع، ص٣٧.

٣٤- ش.أ.ر. جيب الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ترجمة كامل سليمان، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٤، ص٢٣٥ .

٣٥- رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٧٣-١٨٠١م) أحد المفكرين العرب الأوائل الذين تأثروا بالحضارة الغربية خلال دراسته في باريس ودعا إلى الأخذ منها دون إن يخل ذلك بالحضارة الإسلامية، ألف كتاب " تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز " واصفا فيه أقامته في باريس وأعجابه بالتطور الحاصل في فرنسا، ودافع الطهطاوي عن حق المرأة وكان له أثر في عصر النهضة، البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ط٣ تر كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧، ص٩١-٩٣.

٣٦- فاروق ابو زيد، عصر التنوير العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بلا تاريخ، ص٤١ .

٣٧- فرح أنطوان: مفكر وصحفي لبناني ولد في طرابلس ١٨٧٤ م وهاجر إلى القاهرة لأسباب سياسية واقتصادية، وشارك هناك في الحوارات الفكرية وتأثر بالفكر الغربي وحركة التنوير الأوربية وتأثر إلى حد كبير (بارنست رينان) الفيلسوف الفرنسي الداعي للفكر الاشتراكي. ينظر: رفعت العميد، ثلاثة لبنانيين في القاهرة، دار الطليعة، بيروت، ص٧٧ فما فوق.

٣٨- فاروق بو زيد، عصر التنوير العربي، ٦٧-٧٤-٧٥ التوالي.
٣٩- وميض عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) ط٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٦٥.
٤٠- التوحيد (مجلة) العدد ٨٩، السنة السادسة عشرة، تموز، ١٩٩٧، ص٢١-٢٢.
٤١- محمد عمارة، العرب والتحدي ، مطابع الرسالة ، الكويت ، ص١٦١.
٤٢- محمد حسين كاشف الغطاء، اصل الشيعة وأصولها، ص٢٩.
٤٣- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية، ج٢ تعليق عبد الحليم كاشف الغطاء تحقيق محمد الساعدي، مركز إحياء التراث الإسلامي، طهران ٢٠١٨، ص٣٥٦ .
٤٤- محاورة الإمام المصلح الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء مع السفيرين البريطاني والأمريكي في بغداد، ط٢، الأرجنتين ١٣٣٧ هـ، ص١١-١٢ .
٤٥- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام،ص٣٨٥ .
٤٦- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام، ص٣٨٤- ٣٨٥.
٤٧- سليمان، فيضي، مذكرات سليمان فيضي من رواد الحركة العربية في العراق، تحقيق باسل سليمان فيضي، مطبعة الأديب، بغداد ٢٠٠٠ م، ص١٠٩-١١١ .
٤٨- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام، ص٣٨٠ فما فوق .
٤٩- محمد حسين كاشف الغطاء، المراجعات الريحانية، ط١، ص٥٥.
٥٠- أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، بلا تاريخ، ص٦٩.
٥١- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام، ص٩ .
٥٢- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والاسلام، ص١٠ .
٥٣- مجلة التوحيد، العدد ٨٩، تموز ١٩٩٧، ص٨٥ .
٥٤- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام، ص١٠ .
٥٥- مجلة التوحيد، العدد ٨٩، تموز ١٩٩٧، ص٦٠ .
٥٦- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام أو الدعوة الاسلامية، ج٢، ط١، تعليق عبد الحليم كاشف الغطاء، تحقيق محمد جاسم الساعدي، مركز احياء التراث الاسلامي، طهران ٢٠١٨، ص٥.

٥٧- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والاسلام، ص٤٨٠-٤٨١ .

٥٨- معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، سلسلة عالم المعرفة، مطابع الرسالة، الكويت، تموز ١٩٨٧، ص١١٢-١١٣ .

٥٩- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام، ص٤٨٣ .

٦٠- ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني، السنن، ج١، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر العربي، بيروت، بلا تاريخ، ص٨١ .

٦١- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ -١٩١٤، ص٧٩ .

٦٢- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والاسلام، ص٨٣ .

٦٣- محمد حسين كاشف الغطاء، المراجعات الريحانية، ص١٢٣.

٦٤- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والاسلام، ج٢، ص٣٠ .

٦٥- محمد حسين كاشف الغطاء ، الدين والأسلام ، ص٢٤.

٦٦- محمد حسين كاشف الغطاء، المراجعات الريحانية، ص٢٤ .

٦٧- محمد عمارة، مصدر سابق، ص١٦١ .

٦٨- محمد حسين كاشف العطاء، الدين والاسلام، ص١٠٧ .

٦٩- المصدر نفسه، ص٩.

٧٠- محمد عمارة، مصدر سابق، ص١٦٩.

٧١- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام ، ص٩.

٧٢- محمد حسين كاشف الغطاء، التوضيح، ص٣-٤ .

٧٣- المصدر نفسه، ص٤.

٧٤- لزيادة الاطلاع حول النشاط التبشير في العالم الإسلامي والأساليب والوسائل التي تتبعها البعثات التبشيرية لإغواء المسلمين واغرائهم وجذبهم ينظر: أ.ل شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، نقلها إلى العربية مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٥٠، ص١٢ وما بعدها . .

٧٥- محمد حسين كاشف الغطاء، المحاورة مع السفيرين، ص٦١.

٧٦- جورج انطونيوس، المصدر السابق، ص٢٣٨ .

٧٧- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام، ص٢٤-٢٥ .

٧٨- مجلة التوحيد، العدد (٨٩)، تموز ١٩٩٧، ص٧٢.

٧٩- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والاسلام، ص١٩ .

٨٠- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والاسلام، ص٢٣-٢٤.

٨١- علي محافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ -١٩١٤، ص٧٨.

٨٢- محمد حسين كاشف الغطاء، المصدر السابق، ص٢٧ .

٨٣- عبد الرحمن الكواكبي، السيد الفراتي، أم القرى، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة ١٩٣١، ص١٣٨ .

٨٤- البرت حوراني، الفكر العربي، ص١٩٨-١٩٩.

٨٥- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام، ص٢٢-٢٣.

٨٦- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والاسلام، ج١، ص٧٣-٧٦ .

٨٧- المصدر نفسه، ص٣٤ .

٨٨- كاشف الغطاء، المحاورة، ص١٣ .

٨٩- محمد حسين كاشف الغطاء،، الخطب الاربع، جمع نوري كاشف الغطاء، مطبعة الراعي، النجف دون تاريخ، ص٥٠-٥١ .

٩٠- المصدر نفسه، ص٥٢.

٩١- المصدر نفسه، ص٥٣.

٩٢-كاشف الغطاء، الدين والإسلام، ج١، ص٢٣-٢٤.

المراجع:

أولا: كتب الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء:

١- محمد حسين كاشف الغطاء، جنة المأوى،ط١ جمع وتعليق محمد علي القاضي ، مطبعة شركة جاب بتريز ١٣٥٨.

٢- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية، ج٢ تعليق عبد الحليم كاشف الغطاء تحقيق محمد الساعدي، مركز إحياء التراث الإسلامي، طهران ٢٠١٨.

٣- محمد حسين كاشف الغطاء، تعليقات على العروة الوثقى، المطبعة المرتضوية، النجف بلا تاريخ.

٤- محمد حسين كاشف الغطاء، التوضيح في بيان ما هو الإنجيل وما هو المسيح، ج١، مصر١٩١٢.

٥- محمد حسين كاشف الغطاء، المراجعات الريحانية، ط١.
٦- محمد حسين كاشف الغطاء، الخطب الأربع، جمع نوري كاشف الغطاء، مطبعة الراعي، النجف، دون تاريخ.
٧- محمد حسين كاشف الغطاء، العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية، ط١، تحقيق جودت القزويني دار بيان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨.
٨- محمد حسين كاشف الغطاء، الدين الإسلام أو الدعوة الإسلامية، ج ١، دار المعرفة للطباعة، بيروت دون تاريخ.
٩- محمد حسين كاشف الغطاء، في السياسة والحكمة دار البلاغ، بيروت ١٩٨٨.

ثانيا: الكتب:

١- ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني، السنّن، ج١، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر العربي بيروت، بلا تاريخ.
٢- ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ط٣ تر كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧.
٣- أ.ل شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، نقلها إلى العربية مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٥٠
٤- أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، بلا تاريخ.
٥- جعفر الخليلي، هكذا عرفتهم، ج٢، دار التعارف، بغداد بلا تاريخ.
٦- جواد الورعي، حبيب عفيفي وآخرون، موسوعة الإمام محمد حسين كاشف الغطاء، المدخل الأول، ط١، عمار جمعة، محمد حسين حكمت، مركز إحياء التراث الإسلامي، طهران ٢٠١٨.
٧- جورج انطونيوس.
٨- حيدر نزار السيد سلمان، محمد حسين كاشف الغطاء ودوره الوطني والقومي ، معهد العلمين للدراسات العليا، النجف الاشرف ٢٠٠٧.
٩- سليمان، فيضي، مذكرات سليمان فيضي من رواد الحركة العربية في العراق، تحقيق باسل سليمان فيضي، مطبعة الأديب، بغداد ٢٠٠٠م.
١٠- ش.أ.ر. جيب الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ترجمة كامل سليمان، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٤.
١١- عبد الرحمن الكواكبي، السيد الفراتي، أم القرى، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة ١٩٣١.
١٢- علي الخاقاني ، شعراء الغري ، ج١٠، المطبعة الحيدرية ، النجف، ١٩٥٦.

١٣- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤، الأهلية للنشر والتوزيع.
١٤- فاروق أبو زيد، عصر التنوير العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بلا تاريخ.
١٥- فرح أنطوان، رفعت العميد، ثلاثة لبنانيين في القاهرة، دار الطليعة، بيروت، بلا تاريخ.
١٦- محاورة الإمام المصلح الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء مع السفيرين البريطاني والأمريكي في بغداد، ط٢، الأرجنتين ١٣٣٧.
١٧- محمد أركون، لوي غارديه، الإسلام بين الأمس والغد، ترجمة عليّ المقلد، دار الفارابي، لبنان.
١٨- محمد حرز الدين، معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء، تعليق محمد حسن حرز الدين، ج٢، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٤.
١٩.- محمد جعفر محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ط١، ج٣، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٥.
٢٠- محمد عمارة، العرب والتحدي ، مطابع الرسالة ، الكويت
٢١- معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، سلسلة عالم المعرفة، مطابع الرسالة، الكويت، تموز ١٩٨٧.
٢٢- منير التكريتي، أدباء صحفيون، ط١، جامعة بغداد، ١٩٧٩.
٢٣- منير التكريتي، فن المقالة.
٢٤- منير بكر التكريتي، أساليب المقالة في الأدب العراقي الحديث والصحافة العراقية، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٦.
٢٥- وميض عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) ط٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ،

ثالثا: المجلات:

١- التوحيد (مجلة)، العدد ٨٩، تموز ١٩٩٧.
٢- العرفان (مجلة)، ج٩، مجلد (٣٦)، أيلول ١٩٤٩.

رابعا: مواقع الانترنت:

موقع مؤمنون بلا حدود على شبكة الانترنيت mominon.com